

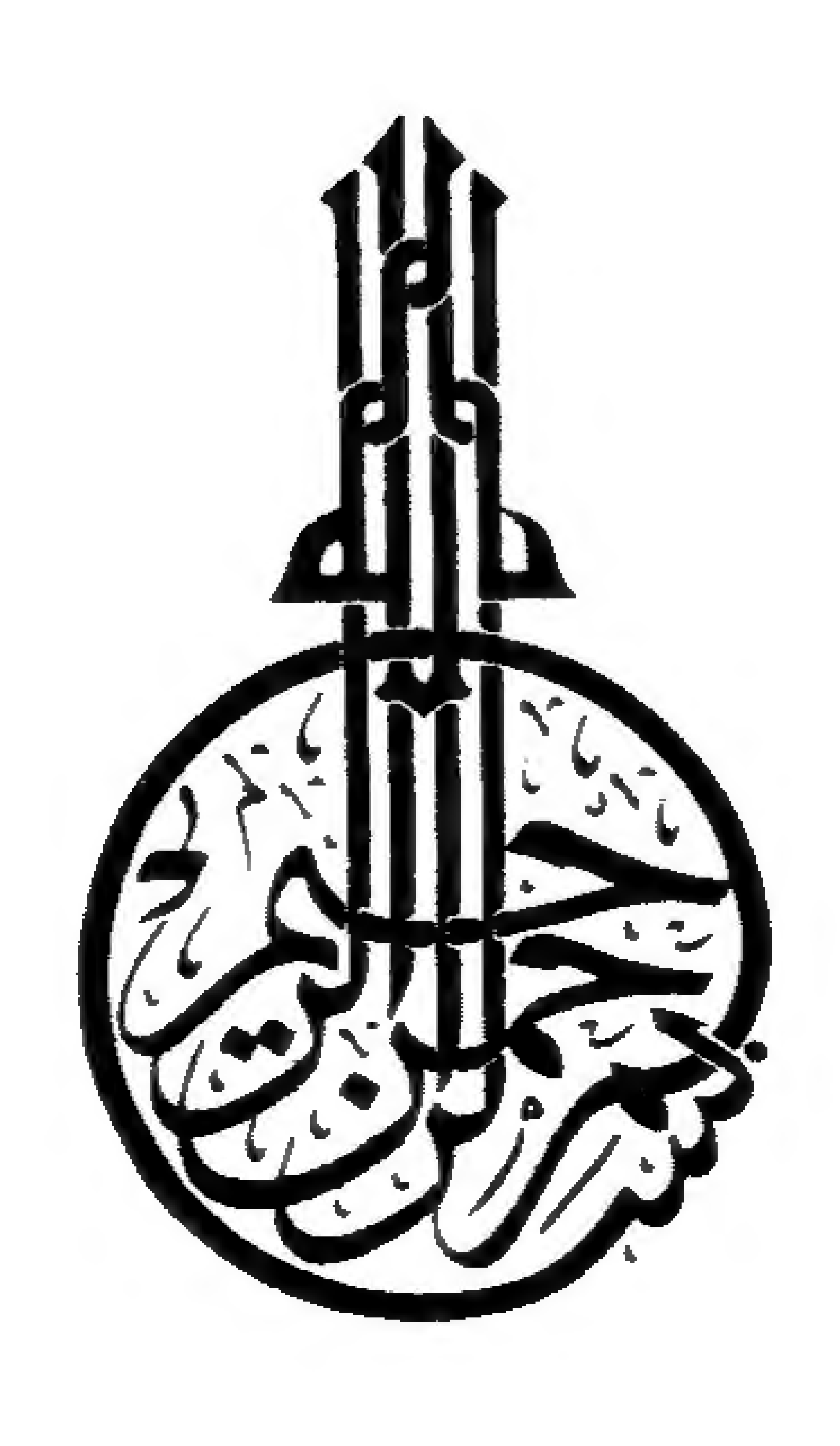
المد والجزر

في تاريخ الإسلام

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

المد والجزر
في تاريخ الإسلام


بسم الله الرحمن الرحيم

كتب قيمة
(٢٣)

المد والجزر في تاريخ الإسلام

تأليف
أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى،

وبعد: فإن السيد الأستاذ الكبير أبا الحسن علي الحسني النَّدْوي - حفظه الله تعالى - واحد من كبار كتَّاب المسلمين ومفكّريهم في هذا الزمان، وقد وهبه الله الفهم الكبير والنظر العميق والرأي السديد، ووهبه أيضاً البيان المشرق والقلم المطاوع والعاطفة المتأجّجة، واتَّجه بكل هذه المواهب يخدم الإسلام، ويهيب بالمسلمين أن يعودوا لدينهم ليُرضوا ربَّهم ويستعيدوا مجدهم.

وكتب في هذا المجال كثيراً من الكتب النافعة والمقالات القيّمة، وكان أبرز ما كتب كتابه القيّم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، ذلك الكتاب الذي كان من أنفع ما أُخرج للناس في هذا الزمان من كتب، والذي جعل همَّه فيه أن يردَّ إلى المسلمين إيمانهم بأنفسهم ورسالتهم التي حمَّلهم الله إياها، وثقتهم بماضيهم، ورجاءهم في مستقبلهم.

وفي هذه الرسالة التي نقدِّمها للمسلمين «المد والجزر في تاريخ الإسلام» من الرسائل الصغيرة النافعة القيّمة، التي خَطَّتها يراعة ذلك الكاتب المفضال والداعية الكبير. وهي رسالة تحدَّث فيها بإيجاز عن حال العرب قبل الإسلام وشهادة الناس بهم في ذلك الزمان، ثم بيَّن التغيُّر الكبير الذي جرى لأمة العرب بعد أن حملت رسالة الإسلام، وكيف أن هذه الأمة انطلقت تحمل رسالتها لأهل الأرض، وتدعو الناس إليها،

وتحطم من بين ظهراني البشرية صروح الظلم والبغي.

ثم تحدَّث المؤلف عن اللغز المدهش الذي كان ولايزال يحيِّر الباحثين.

هذا اللغز هو ذلك الفتح الإسلامي الكبير السريع، وإسقاط ممالك الظلم ونقل الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، واستشهد بأقوال عدد من المؤرخين والباحثين ممن أبدَوا دهشتهم من ذلك، وختم هذه النقطة من بحثه بنظرة تحليلية علمية في هذا اللغز؛ مبيّناً أن سره هو الإيمان الذي أكرم الله به هذه الأمة، والذي كان ولا يزال المنبع الحقيقي لقوتها، واستشهد هنا بأقوال عدد من عقلاء الناس ممن فطنوا لهذا السر في قوة العرب. وبعدها تحدَّث المؤلف بحسرة ومرارة عما جرى لهذه الأمة حين نسيت دينها، وبيَّن أحوالها السيئة في القرون الأخيرة، ووصف جيل المسلمين

منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري، فقال:

«كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين: متنوِّر الذهن ولكن مظلم الروح، أجوف القلب، ضعيف اليقين، قليل الدين، قليل الصبر والجَلَد، ضعيف الإرادة والخُلُق، يبيع دينه بدنياه، وآجله بعاجله، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية، وبجاهٍ وعزة وهمية؛ ضعيف الثقة بنفسه وبأمته، عظيم الاتّكال، كثير الاستناد إلى غيره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]».

وأظهر المؤلف الجليل كيف ظهر أثر هذا الجيل السيّئ في أمتنا في شر مظهر له في فلسطين، التي كانت نكبتها فضيحة للأمة في هذا القرن الرابع عشر الهجري، ثم ختم رسالته بهذه الخاتمة التي تعتبر تلخيصاً قوياً واضحاً لموضوعها وفكرتها والمقصود منها، فقال:

«لقد ثبت مما ذكرناه في هذه الرسالة، ومما سردناه من الأمثلة والأخبار، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ـ وما حرب فلسطين منا ببعيد ـ أن المد والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمدّ والجزر في الإيمان، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين، وأن منبع قوة هذه الأمة في باطنها، وهو القلب والروح، فإذا عُمِّر القلب بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وتزكّت الروح بتعاليم الدين والأخلاق الإسلامية، وجاش الصدر بالحميّة الدينية جَيَشان المِرْجَل، وأخذ المسلمون عدَّتهم من القوة المادية وأعدوا للعدو ما استطاعوا، وأدركوا ما عليه العالم من جَوْر وظلم ومن جهالة وسفاهة وضلال في الدين والدنيا، وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ، فانعطفوا عليه، ورأوا كأن العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم،

فسعوا به يطفئون النار التي عمَّت الدنيا، ونسوا في سبيل ذلك لذَّاتهم، وتكدَّر عيشهم، وطار نومهم، وجُنَّ جنونهم؛ فعند ذلك يتحولون قوة خارقة للعادة، لا يغلبها العالم، ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده، ودُوَله؛ ويصيرون قضاء الله الغالب، وقدره المحتوم، وكلمته العليا.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]».

وختاماً: ندعو الله سبحانه ونرجوه أن ينفع بهذه الرسالة النفع العميم، فيفهم المسلمون الحقيقة الكبرى التي تحدثت عنها، ويؤمنون بها ويجعلون همَّهم تطبيقها وترجمتها إلى واقع عملي. وندعوه

ونرجوه سبحانه أن يثيب كاتبها أجزل الثواب. وأن يعلي مقامه في الدنيا والآخرة، إنه سميع قريب مجيب[1].

الناشر

* * *

---

(١) ملاحظة: رجعت قبل طباعة هذه الرسالة إلى المصادر التي ينقل منها المؤلف نصوصه فقابلتها عليها، وشرحت بعض الكلمات الغريبة، ووضعت للرسالة جميع العناوين التي يشاهدها القارئ الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

حال العرب قبلَ الإسلام

كان العرب قبل الإسلام أمةً كادت تكون منعزلة عن العالم، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعمور البحار من ثلاثة جوانب، وصحراء من جانب، وكانت من الانحطاط والانقسام والضّعَة والخمول بمكان لا تطمع فيه حيناً من الدهر إلى غزو البلاد، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لها في المنام، ولا تَحَدَّث به يوماً من الأيام.

هذا، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم، وزعيمتا الشرق والغرب، وقد أحاطت ممتلكاتهما

بشبه جزيرة العرب، إحاطة السِّوَار بالمعصم، وإنما زهد الفرس والرومان في فتح هذه الجزيرة لوعورتها، وقلة خيراتها ومواردها، وما يكلفهم ذلك من رجال وأموال، هم في غنىً عن إنفاقها في هذه الصحراء المجدبة، وفي هذه الأمة الفقيرة، وإنما اكتفوا برقابتهم السياسية عليها، وبإماراتهم التي أنشؤوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولَهَواتها[١].

هكذا كانت هذه الأمة التي ما كانت لتمثل دوراً مدهشاً في تاريخ العالم عن قريب، كانت أمة بدوية موهوبة ـ ولكن مواهب ضائعة ـ لا يرفع الناس بأفرادها في العراق والشام ومصر رأساً، إذا مرّوا بهم تجاراً أو ممتارين[٢]، ولا يحسبون لهم حساباً، ولا يهمهم شأنهم إلا ما يهم أهل المدن شأن الأعراب

---

(١) لهواتها: أطرافها البعيدة.

(٢) الممتار: من يجلب الميرة، وهي الطعام.

المستعربين في اللباس، والصورة واللسان، ولا يذكرونهم ـ إذا ذكروهم ـ إلا بذَلاقة لسانهم، وفصاحة منطقهم، وشجاعتهم، وجودة خيلهم ووفائها، إلى غير ذلك مما قد تعرفه الأمم المتمدنة عن الأمم البدوية.

* * *

آراء رجال ذلك العصر في العرب

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند أهل العالم، قبل الإسلام، والنظرة التي كان ينظر إليهم بها جيرانهم في الشرق والشمال[1]، فاستعرض الآراء التي أبداها رجال ذلك العصر، من أهل البصر

---

(١) كان جيران العرب في الشرق الفرس، وجيرانهم في الشمال الرومان.

والمعرفة، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها.
فمما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء، ما قاله إمبراطور الدولة الفارسية لسفراء المسلمين.

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي بعدما ساق حديث رُسِل المسلمين في مجلس يزدجرد:

قال: «فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً، ولا أسوأ ذاتِ بَيْن منكم، قد كنا نوَكِّلُ بكم قرى الضواحي ليكفُوناكم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم؛ فإن كان عددكم كثر، فلا يغرّنكم منا، وإن كان الجَهد[1] دعاكم، فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم».

---

(١) الجهد: المشقة والبلاء.

فقال المغيرة بن شعبة:

«أيها الملك، إنك قد وصفتَنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرتَ من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجِعْلان، والعقارب والحيّات، ونرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض. وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية، كراهية أن تأكل من طعامه، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلاً... إلخ»(١).

وجاء في هذا الكتاب أيضاً:

«... وقد بعث أمير الفرس، يطلب رجلاً من

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٤١ ـ ٤٢.

المسلمين ليكلِّمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة، فذكر من عِظَم ما رأى عليه من لبسه، ومجلسه، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب، واستهانته بهم، وأنهم كانوا أطول الناس جوعاً، وأبعد الناس داراً، وأقذر الناس قذراً، وقال: ما يمنع هؤلاء الأساورة[1] حولي أن ينتظموكم[2] بالنشّاب، إلا تنجساً من جِيَفكم، فإن تذهبوا نُخَلِّ عنكم، وإن تأبَوا نُزْركم مصارعكم. قال: فتشهَّدْتُ وحمدت الله وقلت: لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت حتى بعث الله رسوله... إلخ»[3].

وفي هذا الكتاب أيضاً:

«وذكر الوليد بن مسلم: أن (ماهان) طلب

---

(١) الإسوار والأسوار عند الفرس: القائد، جمعه أساور وأساورة.

(٢) ينتظموكم: يَشُكّوكم.

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ١٠٩.

خالداً ليبرز إليه فيما بين الصَّفَّين، فيجتمعا في مصلحة لهم، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلُمُّوا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير، وكسوة وطعاماً، وترجعون إلى بلادكم. فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها»[1].

وهذا كله يدل على ما كان يساوي العرب عند الروم، وعلى ما كان لهم من قيمة ومنزلة عندهم.

* * *

تغيُّر حال العَرَبِ بالإسلام

ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال، وانقلبت الحقائق، وبطلت التجارب السابقة، وتاه العقل؛ إذ

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٠.

خرج هؤلاء الأعراب من صحرائهم، يفتحون، ويقهرون، ويغلبون، ويُخضعون. تدفق هذا السيل من مدينة الرسول ﷺ عاصمة العرب الإسلامية، لإحدى عشرة سنة للهجرة النبوية، واثنين وثلاثين وست مئة لميلاد المسيح، فغلب كلَّ شيء اعترضه في الطريق، وطما[1] على السهل والجبل، ولم تكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف، الشاكَّة السلاح[2]، الشديدة البطش، التي كانت الأرض تزلزل بها زلزالاً، لم تكن هذه الجنود المجندة إلا حشائش في هذا التيار الجارف، فلم تعق سيره، ولم تغيِّر مجراه، حتى فاض في مروج الشام، وفلسطين، وسهول العراق وفارس، وربوع مصر والمغرب الأقصى، وأودية هملايا، سال هذا السيل

---

(١) طما: علا وغطّى.

(٢) الشّاكة السلاح: التامة السلاح أو الحادّة السلاح.

القوي بالمدنيات العتيقة، والحكومات المنظمة القوية، والأمم العريقة في المجد والسلطان، فأصبحت خبراً بعد عَيْنٍ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

خرج العرب من جزيرتهم فاحتكُّوا بالفرس والروم، وكان العرب يكرهون وجوههم[١] ويرهبون سطوتهم في ديارهم؛ ولكن هانوا عليهم في هذه المرة، فغزوهم في عقر دارهم، ونزلوا الساحتهم، فما لبثوا أن مزَّقوا جموعهم شر ممزّق، وثَلُّوا عروشهم[٢]، ووطؤوا تيجان ملوكهم، وفتحوا كنوزهم، واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم، وسبَوا ذراريهم، ومزَّقوا رداء

---

(١) قال الطبري: «عندما أراد عمر فتح فارس تخوّفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم! وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم، وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم، وعزّهم وقهرهم الأمم» (تاريخ الطبري: ٤/ ٦١).

(٢) ثلوا عروشهم: هدموها.

فخرهم وعظمتهم، فلم يرقع أبداً، وكسروا شوكتهم، فلم تعد أبداً، وهلك كسرى فلا كسرى بعده، وهلك قيصر فلا قيصر بعده: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم في ثياب صَفِيقة[١] مرقَّعة، ونعال وضيعة مخصوفة[٢]، يتقلَّدون سيوفاً بالية الأجفان[٣]، رثة المحامل، على خيلٍ بعضها عارية الظهور، متقطعة الغرز[٤]، قد بلغ بهم البعد عن المدنيّة إلى حد أنهم كانوا يحسبون الكافور ملحاً، وربما استعمله بعضهم في العجين[٥].

---

(١) صفيقة: كثيفة النسيج.

(٢) خصف النعل: خرزها وضم بعضها إلى بعض.

(٣) الجفن: غمد السيف، أي بيته.

(٤) الغَرْز: ركاب من جلد يضع الرجل قدمه فيه ثم يمتطي دابته.

(٥) قال ابن كثير: «كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور، فيجدون البيت ملآناً إلى أعلاه من أواني الذهب والفضة، ويجدون من =

فما لبثوا أن ملكوا الدنيا، وامتلكوا ناصية أمم بعيدة الشأو في المدنية، انقلب رِعاءُ الشاة والإبل، رعاة لأرقى طوائف البشر في العلم والمدنية والنظام، وصار هؤلاء أساتذتهم في العلوم والآداب، والأخلاق والتهذيب، وحقت كلمة الله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

* * *

اللغز الذي أدهشَ المؤرخين

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي، وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الخمود العجيب، وهذا الانتباه السريع بعد ذلك السبات العميق، لغز من ألغاز

= الكافور شيئاً كثيراً، فيحسبونه ملحاً، وربما استعمله بعضهم في العجين، فوجدوه مرّاً حتى تبيّنوا أمره». (البداية والنهاية: ٧/ ٦٧).

التاريخ، وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن هذا الحادث أغرب ما وقع في التاريخ الإنساني، وإليك بعض ما قال المؤرخون الأوروبيون:

قول المؤرخ «جبون»

يقول المؤرخ «جبون»: «بقوة واحدة ونجاح واحد، زحف العرب على خلفاء أغسطس (في الروم) واصطخر (في فارس)، وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما، في عشر سنوات من أيام حكم عمر أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع، خربوا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار، وأنشؤوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين، على رأس قرن من هجرة محمد ـ ﷺ ـ من مكة، امتد سلطان خلفائه من الهند إلى المحيط الأطلانطيكي،

ورفرف علم الإسلام على أقطار مختلفة نائية كفارس وسورية ومصر وأفريقيا وإسبانيا»[1].

قول المؤرخ الأمريكي «ستودارد»

ويقول «ستودارد» الأمريكي في كتابه حاضر العالم الإسلامي: «كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دُوِّن في تاريخ الإنسان، ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منحطة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود، حتى انتشر في نصف الأرض، ممزقاً ممالك عالية الذُّرى، مترامية الأطراف، وهادماً أدياناً قديمة كرت عليها الحِقَبُ والأجيال، ومغيِّراً ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراصّ الأركان؛ هو عالم الإسلام.

---

(١) انحطاط رومة وسقوطها: ٥/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، طبع أكسفورد.

كلما زدنا استقصاء، باحثين في سر تقدم الإسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب العجاب بَهْراً، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت، ثم أنشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقية كل صعب، حتى كان أن قيَّض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر، وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين، ثم أخذ في تأييده والذبِّ عنه، حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه؛ بطل النصرانية «قسطنطين»، والبوذية «أسوكا»، والمزدكية «قباذ كسرو»، كل منهم ملك جبار، أيَّد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوى والأيْدِ.

إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية، تجوب فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته

في الأرض مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات، دون أن يكون من الأمم الأخرى عون يذكر، ولا أزر مشدود، وعلى شدة هذه المكاره فقد نُصر الإسلام نصراً مبيناً عجيباً، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين، حتى باتت راية الإسلام خفاقة من «البرانس» حتى «هملايا»، ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقية»[1].

قول المؤرخ «فيشر»

ويقول مؤرخ عصري «هـ. ا. ل. فيشر» في كتابه تاريخ أوروبا: «لم يكن هنالك في جزيرة العرب قبل الإسلام أثر لحكومة عربية، أو جيش منتظم، أو لطموح سياسي عام، كان العرب شعراء خياليين،

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، ج ١، تعريب الأستاذ عجاج نويهض مقدمة في نشوء الإسلام.

محاربين، وتجاراً، لم يكونوا سياسيين، إنهم لم يجدوا في دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم، إنهم كانوا على نظام منحطّ من الشرك، بعد مئة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة، إنهم فتحوا سورية ومصر، ودوّخوا وقلبوا فارس، ملكوا تركستان الغربية، وجزءاً من بنجاب، إنهم انتزعوا أفريقية من البيزنطيين والبربر، وأسبانيا من القُوط، هدّدوا فرنسا في الغرب، والقسطنطينية في الشرق.

مخرت أساطيلهم المصنوعة في الإسكندرية وموانئ سورية، مياه البحر المتوسط، واكتسحت الجزائر اليونانية، وتحدّت القوة البحرية للإمبراطورية البيزنطية، لم يقاومهم إلا الفرس وبربر جبال الأطلس، إنهم شقّوا طريقهم بسهولة، حتى صعب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقف، ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء، لم يعد

البحر المتوسط بحر الروم، بل أصبح حوضاً عثمانياً، لا سيطرة فيه لغير الترك، ووجدت الدول النصرانية من أقصى أوروبا إلى أقصاها منذَرَةً مهدَّدَة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي»[1].

قول لمؤلف شيوعي

ويقول مؤلف شيوعي: «إن الإنسان ليدهش إذا تأمل السرعة الغريبة التي تغلب بها طوائف صغيرة الرّحالين، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم، لم يمضِ خمسون سنة على بعثة محمد ـ ﷺ ـ حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند في جانب، وعلى ساحل البحر الأطلانطيكي في جانب آخر، إن خلفاء دمشق الأولين حكموا على إمبراطورية، لم تكن لتقطع

---

(١) H.L FISHER; "A.History Of Europ" p.p 137 - 138

في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل، وحتى نهاية القرن الأول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم.

كل نبي جاء بمعجزات آيةً لما يقول، وبرهاناً على صدقه، ولكن محمداً - ﷺ - هو أعظم الأنبياء وأجلّهم؛ إذ كان انتشار الإسلام أكبر آيات الأنبياء وأروعها إعجاباً وخرقاً للعادة، إن إمبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها «تراجان» نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون، ولكنها لا تساوي المملكة العربية التي أُسِّست في أقل من قرن، إن إمبراطورية الإسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة، إن الإمبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة؛ ولكنها غُلبت وسقطت أمام «سيف الله» في أقل من عشر سنوات»[1].

* * *

(1) M.N. ROY ; "Historical Role Of Islam" p.p 4,5,6,7.

نظرة تحليلية في هذا اللغز

والآن ننظر في هذا الحادث الغريب نظراً علمياً تحليلياً، ونبحث عن أسبابه الحقيقية؛ الجنود والدول في هذا العالم المادي تغلب الجنود والدول في الغالب لوفرة عددها أو بزيادة عدتها وعتادها، ولأنها أحسن في الشِّكَّة والسلاح، وفي التنظيمات العسكرية، وفائقة في النظام الحربي، فتتناول جميع هذه العلل المادية التي يرجع إليها الفضل في انتصار الجيوش، والدول عامة، ونبحث فيها علة علة:

مسألة العدد

أما العدد فمعلوم أنه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين في العدد في جميع المواقف الحاسمة والمعارك الفاصلة في كفاح الإسلام والنصرانية

والمجوسية، وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع؛ هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم مئة ألف وثمانين ألفاً، وفي رواية مئتي ألف، وفي رواية أربعين ومئتي ألف. وأقل ما روي عن عددهم عشرون ومئة ألف، وأكثر ما ذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً.

كذلك كانت النسبة بعيدة في وقعة القادسية، وهي أختها في العراق والنتيجة معلومة، و«ما يوم حليمة بسرٍّ»[1].

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعاً، يعلِّلوا الفتح الإسلامي الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتِلَة المسلمين. جاء

---

(١) يوم حليمة: هو يوم من أشهر أيام العرب في الجاهلية، وهذا المثل يُضرب في كل أمر مُتَعالَم مشهور.

في الفصل الرابع للأستاذين «غودفروا دمونبينت» و«بلانونوف»:

«إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تعد، تدفَّقت على الشرق المتمدّن، فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف، ثم أرسل إليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم (٧٥٠٠) مقاتل، وأخيراً تتامّ عددهم ٣٤ ألفاً، وأما عدد الروم فقال العرب: إنه كان مئة ألف، وقيل ٣٠ ألفاً، وقيل ٣٠٠ ألف مقاتل، ولم يزده مؤرخو بيزنطة على ٤٠ ألفاً، وعلى كل حال كان العدد الأكبر لأعداء العرب، وهكذا في حروب فارس»[1].

ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، حواشي الأمير شكيب أرسلان: ١/ ٣٩.

إلى مساحتها واتّساع رقعتها، معظمها صحراء، ورمال وَعْثاء، وأرض قاحلة جرداء، أما البلاد التي زحف عليه المسلمون ورموا فيها بأنفسهم، فهي من أخصب بلاد الله، مستبحرة العمران، مكتظّة السكان، وكانت خليتها تعسل حيناً بعد حين، وتقطع بعوثاً إثر بعوث.

وتتدفّق سيول من الجيوش والمقاتلة، وتأتيهم الميرة من كل مكان لا تكاد تنتهي، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورة في بحار من الأعداء، نازحين عن بلادهم منقطعين عن مركزهم، ولا يصلهم المدد إلا بشق الأنفس وبعد شهور، ولا يجدون من الميرة إلا ما يتغلّبون عليه وينتزعونه من أيدي أعدائهم انتزاعاً، فلو تطوّعت جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس، ونفر جميع أهاليها للجهاد في سبيل الله ـ على أن ذلك من المستحيل ـ لما وقعوا من العالم النصراني والمجوسي ـ وهما أكثر من نصف الأرض

المعمورة ـ بمكان، فكيف والذين تطوّعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة؟!.

مسألة العتاد والسلاح

أما العُدَد والعتاد، فكان العرب أفقر فيها، وأقل منهم في العدد، فلم تكن هناك جنود مرتزقة، ولا جيوش منظمة تعبّئها الحكومة وتسلّحها من عندها، ثم تبعثها كاملة السلاح تامة الجهاز، إنما كان متطوّعون، يجهزون أنفسهم وينفرون شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله ورجاء ثوابه، ومنهم من لا يجد راحلة، ويلتمس عند غيره فلا يجد، فيقعد متلهّفاً على ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل الله، وقد أنزل الله فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وكان المسلمون تزدريهم أعين الروم والفرس لمّا خرجوا لقتالهم، وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون. قال أبو وائل ـ أحد الذين شهدوا القادسية ـ: كان الفرس يقولون للمسلمين: «لا يَدَ لكم ولا قوة ولا سلاح، ما جاء بكم؟! ارجعوا، قال: قلنا: ما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من نَبْلِنا، ويقولون: «دوك دوك» ويشبِّهونها بالمغازل»[1].

قال ابن كثير: «وكان سعد قد بعث طائفةً من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى الله قبل الوقعة، فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم، وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، والنعال في أرجلهم، وخيولهم الضعيفة، وخبطها الأرض بأرجلها؛ وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب: كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٤٠.

مع كثرة عَددها وعُددها؟!»[1].

ويقول «ماكس مايرهوف» في تأليفه «العالم الإسلامي»:

«يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف أن أعراباً منتمين إلى عشائر، ليست عندهم العُدد والأعتدة اللازمة، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس، الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة»[2].

مسألة تفوُّق العرب في النظام الحربي

ومما قيل في تعليل غلبة المسلمين: إن العرب كانوا فائقين في نظامهم الحربي على الروم والفرس في

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٤١.
(٢) حاضر العالم الإسلامي، حواشي الأمير شكيب أرسلان: ١/ ٣٩.

ذلك العصر، وكانت كتائبهم أحسن تنظيماً وتدريباً، وأفضل نظاماً عسكرياً، وأكثر انقياداً لأمرائها وقوّادها من العساكر الرومية والفارسية، وأن الفضل في انتصار العرب مع قلّتهم وانكسار الروم والفرس رغم كثرتهم، يرجع إلى مراس العرب للقتال وضراوتهم بالحروب، وولوعهم بالغزو والنهب، ونشأتهم الجاهلية الأولى النشأة الحربية المحضة.

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيهاً وأكثر صواباً من التعليلات السابقة.

ولكنك إذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطةً كبيرة، يغالط بها الكتّاب الأوروبيون ويتعلّلون بها، وقد يفهمون وقد لا يفهمون.

وقد ثبت في تواريخ القرون الوسطى أن الروم ـ وكذا الفرس ـ كانوا راقين في نظامهم الحربي في ذلك العصر، وقد بلغت الدولة البيزنطية في بداية

القرن السابع المسيحي زهوها، وأوج فتوحاتها الحربية؛ ففي ذلك العهد دحر الروم الفرس، وردّوهم على أعقابهم، وجاسوا خلال الديار، وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجلة غازياً منتصراً، وبعد حرب دامية في ساباط ومعركة فاصلة في نينوى، دخل دستجرد وتقدم إلى المدائن، وغرز علم الفتح الرومي في قلب فارس، وذلك كله في سنة ٦٢٥م؛ يعني قبل زحف المسلمين على الشام باثنتي عشرة سنة فقط.

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين ـ الروم والفرس ـ من جهة الحرب والتدريب كثيراً، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال وحنكة وحسن بلاء في الحرب، وتعلّم كل فريق من الآخر، كما كان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطى.

وقد اعترف «جبون» مؤرخ روما الكبير بفضل

الروم على العرب في الحروب ونظامها، فقد قال في كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨):

«أنا ألاحظ هنا وسأكرره مراراً، أن هجوم العرب وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان، الذين كانت لهم رجّالة قوية مستحكمة، كانت القوة العسكرية للعرب مركبة من فرسان ورماة، وكانت الحرب التي قد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال، قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة إلى عدة أيام».

أما ما قيل من مراس العرب للقتال وتدريبهم عليها؛ بفضل حروبهم القبلية التي كادت تكون مستمرة، وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس، فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكّن بها العرب من قهر الإمبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية، وقد خضع العرب مع هذا كله

للحبشة ولفارس في جنوب العرب، وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه على مكة، وأن الله هو الذي تولّى بيته وكفى قريشاً القتال، وجعل أصحاب الفيل كعصف مأكول، ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من جزيرتهم وغزو البلاد وفتحها في هذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهم في خمود وخمول تام؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد ﷺ بغير تراخ؟ ولماذا لبثوا الأحقاب والأجيال الطوال «معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم» كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار[1].

أما ما قيل عن النظام، فلا ننكر حسن نظام العرب في حروبهم وغزواتهم، وروح التعاون

---

(١) تفسير ابن جرير: ٤/ ٢٣، ومعكومين: مشدودين.

والتفادي الساري في جنودهم، والطاعة والانقياد لأمراء الجيوش وقوادها، والتفاني والاستماتة في سبيل الله؛ ولكن يعلم الخبير أن النظام ليس شيئاً صناعياً ميكانيكياً، يحصل بمجرّد تنظيمات عسكرية، وفنون حربية وقواعد رياضية، ولو صففت الحجارة تصفيفاً بديعاً، أو أقيمت العمد والسواري على نظام فني رياضي كامل لم تنفع شيئاً، وقد قرأت في التاريخ أن الروم والفرس قد كانوا في بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم(١)، ويحفرون لهم في الأرض لئلا يندحروا أو ينسحبوا من ميدان القتال، ثم لا يغني عنهم هذا شيئاً، فليس الشأن كله في النظام في الحرب؛ إنما الشأن الكبير والتأثير البليغ للروح والمبدأ والغاية التي يقاتل لأجلها الجنود، وتمكّنها

(١) يربطون الجماعة من جندهم بالسلاسل لئلا ينهزموا.

من النفوس، وهي منبع القوة الخارقة للعادة، ومبعث الشجاعة التي تبهر العقول، وسبب الفتوح العظيمة التي يندهش لها المؤرخون والفلاسفة.

* * *

منبَع القوة الحقيقي عند العربِ المُسلمين

وعن هذا المنبع نبحث في نفوس العرب الأولين الذين خرجوا لفتح العالم وفتحوا نصف الأرض في نصف قرن.

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ، أن العرب أصبحوا بفضل تعاليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالة، فبُعثوا بعثاً جديداً، وخُلقوا من جديد، وانقلبوا في داخل أنفسهم؛ فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت، وانقلبوا غير ما كانوا.

نظروا إلى العالم حولهم ـ وطالما رأوه في جاهليتهم بدهشة واستغراب ـ فإذا الفساد ضارب أطنابه، وإذا الظلم مادٌّ رُوَاقه، وإذا الظلام مخيّم على العالم كله، وكل شيء في غير محلّه، فمقتوه وأبغضوه. ونظروا إلى الأمم وطوائف البشر حول جزيرتهم ـ وطالما رأوها بتعظيم وإجلال، وغبطة وإكبار ـ فإذا أنعام ودواب في صورة البشر: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وإذا صورٌ ودُمىً قد كُسيت ملابس الإنسان، فاستهانوا بهم، وبما هم فيه من ترف ونعيم، وزخارف وزينة، وقرؤوا قول الله تعالى: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليُخرِجوا الناس من

الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضاً لم يطؤوها، واستخلفهم في الأرض ومكّنهم فيها، وقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ١٠٥]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وتعلّقوا بقول نبيهم ﷺ:

«إن الله زَوَى[١] لي الأرض فرأيت مشارقها مغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِّي لي منها،

---

(١) زوى لي الأرض: جمعها وقبضها.

وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»[1].

وقوله: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفِقُنَّ كنوزهما في سبيل الله»[2].

وعرفوا أنّ الله قد ضمن لهم النصر، ووعدهم بالفتح، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله، واستهانوا بالقلة والكثرة، واستخفّوا بالمخاوف والأخطار، وذكروا قول الله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقوله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

* * *

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي.

تفطّن العقلاء لِسرّ قوّةِ العربِ المسلمين

قول هرقل في هذا الأمر

وقد فطن لهذه الحقيقة بعض معاصري المسلمين وأعدائهم، وأهل النظر والتمييز في ذلك العصر من الروم والفرس، فمن ذلك ما روى ابن كثير أن هرقل لمّا انتهى إلى خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام: «ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قِبَلَ لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيّقوا عليكم جبال الروم»[1].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٥.

قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

أما عقيدة المسلمين أنهم مبعوثون إلى الأمم موكَّلون بإخراج الناس إلى عبادة الله وحده، وأن الله متولي نصرهم ضامن بظفرهم، فستلمحه وتلمسه في كل ما كان يصدر من المسلمين من كلام وفعال، ومن ثقتهم وسكينة قلوبهم.

ومن ذلك ما روي أن الأمراء في اليرموك لمَّا كتبوا إلى أبي بكر وعمر، يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم، وما يقابلونه من خطر داهم، وعدد لا قبل لهم به، كتب إليهم: «أن اجتمعوا، وكونوا جنداً واحداً، والْقَوْا جنود المشركين، فأنتم أنصار الله، والله ناصرٌ مَنْ نَصَرَه، وخاذلٌ مَن كَفَرَه، ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها»[١].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٥.

قول علي رضي الله عنه

ولما استشار عمر أصحابه في مسيره إلى العراق بوقعة نهاوند، قال له علي بن أبي طالب: «يا أمير المؤمنين إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلّة، هو دينه الذي أعزّه وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده وناصر جنده»[١].

قول سعد وسلمان رضي الله عنهما

ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم، ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة؛ ثقةً بنصر الله واعتماداً على موعوده، حتى إنهم خاضوا بخيولهم في دجلة، وكانوا يتحدّثون مطمئنين كأنهم سائرون على البرّ، وكان منظراً غريباً، وجعل الفرس يقولون: «ديوان

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٠٧.

آمدند» ـ يعنون الجن والعفاريت ـ ويقولون: «ديوانه» «ديوانه» يعنون المجانين، وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرنّ الله وليّه، وليظهرنّ الله دينه، وليهزمنَّ الله عدوَّه، إن لم يكن في الجيش بَغْيٌ أو ذنوب تغلب الحسنات»، فقال له سلمان: «إن الإسلام جديد، ذُلِّلَتْ لهم ـ والله ـ البحور كما ذُلِّلَ لهم البرّ، أما والذي نفسُ سلمانَ بيده ليخرجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً»، فخرجوا منه كما قال سلمان، لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئاً[١].

قول عبد الله بن أبي رواحة رضي الله عنه

بَعَثَتْ هذه العقيدة والنفسية طمأنينةً في أنفسهم، وسكينة في قلوبهم، وشجاعة خارقة للعادة، واستهانة

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٦٥.

بالعَدَد والعُدَد، وعدم عبادة للمادة، وعدم اتخاذ الأسباب أرباباً، وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين، ويظفرون ويغلبون ببركة الإسلام، فكانوا شديدي الاحتفاظ، كثيري الاعتداد بها، يتمثّل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. روى يونس عن ابن إسحاق: أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمؤاب في مئة ألف من الروم ومئة ألف من المستعربة[1] ـ والمسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف ـ فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، قال: فشجّع الناسَ عبد الله بن رَوَاحة، وقال: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعَدَدٍ ولا قوة

---

(١) المستعربة: العرب التي اعتنقت النصرانية.

ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلِقوا فإنما هي إحدى الحُسنَيين: إما ظهور، وإما شهادة»، قال: فقال الناس قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة، فمضى الناس[1].

قول أبي عبيدة رضي الله عنه

كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم ﷺ عن الفتوح العظيمة، فإذا رأوا من ذلك شيئاً قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

جاء رجل إلى أبي عبيدة يوم اليرموك، فقال: «إني قد تهيّأت لأمري، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، تقرئه عني السلام،

---

(١) البداية والنهاية: ٤/ ٢٤٣.

وتقول: يا رسول الله، إنّا قد وجدنا ما وعدَنا ربنا حقاً»[1].

قول خالد رضي الله عنه

وقد بلغوا في قلّة الاهتمام بالعدد والاستخفاف بشأن العدو وكثرته، حتى كأنهم من حديد والعدو من طين وخَزَف، أو كأنهم مناجل، والعلوج[2] حقول ومزارع، قد أينعت وحان حصادها.

قال المؤرخون: لما أقبل خالد من العراق، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ويلك أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٢.

(٢) العلج: الرجل الضخم القوي من كفار العجم، وقد يُطلق على الكافر عموماً.

لا بعدد الرجال، والله لوددتُ أن الأشقر[١] براء من توجِّيه[٢]، وأنهم أُضعفوا في العدد. وكان فرسه قد حفيَ واشتكى في مجيئه من العراق[٣].

قول رِبْعي بن عامر في مجلس يزدجرد

وقد ارتفع هؤلاء وعلت هممهم، وكبرت نفوسهم، وعظم الدين والحقيقة والأخلاق في نظرهم، حتى صغرت الدنيا وزخارفها في عيونهم، وهان أهلها عليهم، فكانوا يرون إلى أُبهة الملوك وفخفخة السلاطين، وما فيه أغنياء هاتين المدنيتين ومترفوها من الأثاث والرياش، وزخارف الدنيا،

---

(١) الأشقر: فرس خالد، وكان قد رقت قدمه في مسيره من العراق إلى الشام.

(٢) توجِّيه: وجى الفرس وتوجى: أُصيب بالوجى، وهو أن يشتكي الفرس باطن حافره.

(٣) البداية والنهاية: ٩/٧.

كأنهم يرون إلى لعب الصبيان، وكأنهم يرون الدمى والبنات المصنوعة من ورق أو قماش، ومواكبها وزينتها، لا يهولهم شيء ولا يعظم في عينهم شيء.

أرسل سعد قبل القادسية رِبْعيَّ بن عامر رسولاً إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ـ فدخل عليه، وقد زيّنوا مجلسه بالنمارق[1] المذهّبة والزرابي[2]، وأظهر اليواقيت واللآلي الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل رِبعيٌّ بثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه

---

(١) النمارق: جمع نمرقة بضم النون والراف وبكسرهما، وهي الوسادة.

(٢) الزرابي: جمع زربية بضم الزاي وكسرها وفتحها، وهي الطنْفِسَة أي السجادة.

وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكّأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم يوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، فقال: ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ

أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاثٍ، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أَسَيِّدُهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟! فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العربَ يَسْتَخِفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب[1].

المغيرة بن شعبة يجلس على سرير رستم

ودخل المغيرة بن شعبة على رستم وقعد معه على السرير، فَنَخَروا وصاحوا، فقال: إن هذا لم

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٣٩ـ ٤٠.

يزدني رِفْعَةً، ولم ينقص صاحبكم، فقال رستم: صدق[1].

أخلاق الصحابة وسيرتهم التي انتصروا بها

وكان من أكبر أنصار المسلمين أخلاقهم العالية وسيرتهم المَلَكيّة، فكانوا يمتازون بها ويُعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا، وكانت هذه الأخلاق طليعة جيوشهم، تسخّر لهم القلوب والنفوس، وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم، والذين كانوا يشهدونها ويجربونها، كانوا يشهدون أن هؤلاء سيغلبون ويملكون الدنيا، وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كالفرق بين البهائم والملائكة.

روى أحمد بن مروان المالكي في (المجالسة) بسنده عن أبي إسحاق، قال: كان أصحاب

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٤٠.

رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فُوَاق ناقة[1] عند اللقاء، فقال هرقل ـ وهو على أنطاكية لما قدمت مُنْهَزِمةُ الروم ـ: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم. ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني[2].

---

(١) فواق ناقة: مدة حَلْبِها.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ١٥.

وسأل هرقل هذا رجلاً كان قد أُسر مع المسلمين، فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم؛ هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلاَّ بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على مَن حاربوا حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليَمْلِكُنَّ موضع قدميَّ هاتين.

وصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم، فقال: جئتك من عند رجال دقاق، يركبون خيولاً عتاقاً، أما الليل فرهبانٌ، وأما النهار ففرسانٌ، يريشون النبل[1] ويبرونها، ويثقِّفون القنا[2]، لو حدَّثت جليسك حديثاً، ما فهمه عنك لِمَا علا من أصواتهم بالقرآن والذكر. قال: فالتفت إلى أصحابه

---

(١) يعملون لها ريشاً.

(٢) يقوّمونها.

وقال: «أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به»[1].

حبَّبتْهم هذه الأخلاق إلى أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم، حتى إنْ كان هؤلاء ليؤثرونهم على بني جِلْدَتهم وأبناء مِلَّتهم، ويتمنون لهم الظفر، ويدفعون عنهم العدو، ويتطوّعون لمصالحهم.

قال البلاذري في فتوح البلدان: «حدّثني أبو حفص الدمشقي، قال: حدّثنا سعيد بن عبد العزيز، قال: بلغني أنه لما جمع هِرَقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالُهم إليهم لوقعة اليرموك، ردُّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لَوِلايتكم

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٦.

وعدلكم أحب إلينا مِما كنا فيه من الظلم والغَشْم، ولندفعنَّ جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود، فقالوا: والتوراةِ لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص، إلَّا أن نُغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنَّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكَفَرة وأظهر المسلمين، فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلِّسين[1]، فلعبوا وأدَّوا الخراج».

* * *

(١) قَلَس القوم: استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدف والغناء وأصناف اللهو.

ما جَرى للمُسلمينَ حينَ نَسُوا دينَهم

هذا ولما طال على المسلمين الأمد، وقست قلوبهم، ونَسُوا وتناسوا ما لأجله بعثهم الله على كثرةٍ من الناس، وتَوَافُرٍ من أمم الأرض، وهو قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ونَسُوا ما لأجله خرجوا من جزيرتهم؛ يُخرجون الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس، وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة، حياة مَن لا يعرف نبياً ولا يؤمن برسالة ووحي، ولا يرجو حساباً، ولا يخشى معاداً، وأَشبهوا الأمم الجاهلية التي خرجوا يقاتلونها بالأمس، عادوا فقلّدوها في مدنيتها

واجتماعها، وسياستها وأخلاقها، ومناهج حياتها، وفي كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها، وأصبحوا لا همَّ لهم ولا شغل، إلا الأكل والشرب والتناسل، وأصبحوا كرعايا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس، وأشبهت ملوكهم وأُمراؤهم جبابرتها وفراعنتها، وأغنياؤهم مترفيها وأكابر مجرميها، وكاد يسبق فجَّارهم فجارها، تحاسدٌ وبغضاء، ومنافسة في السلطان، وتكالبٌ على حطام الدنيا، وإخلادٌ إلى الترف والنعيم، وإعراض عن الآخرة، وسفك للدماء، وهتك للأعراض، وهضم للحقوق وغدر بالعهود والذمم، وتعدٍّ على حدود الله، وإعانة للظالم، وجَنَف[1] في الحكومات والمظالم، وتبذير لأموال الله، وعموم الفواحش والمنكرات، وابتداع للجرائم،

(١) الجَنَف: الميل.

وإبداع في الخيانة، مما يحتاج بسطه إلى مجلدات.

فهانوا إذاً على الله مع أسمائهم الإسلامية، ورغم وجود الصالحين فيهم، وظهور بعض الشعائر الدينية، والواجبات الشرعية في بلادهم، وهانوا على الناس رغم مملكتهم الواسعة وجيوشهم الكثيفة، وخزائنهم العامرة، ورغم تقدمهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة، فقلَّ إكرام الناس لهم وهيبتهم إياهم، وتجاسروا عليهم.

قال «رتبيل» ملك رُخَّج وسجستان، لرسل يزيد بن عبد الملك ـ وقد جاؤوا إليه يطالبونه بالخراج ـ: «ما فعل قوم كانوا يأتونا: خِماص البطون، سود الوجوه من الصلاة، نعالهم خوص؟» قالوا: انقرضوا، قال: «أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً». ثم لم يعطِ أحداً

من عمال بني أمية، ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الإتاوة شيئاً[1].

فإذا كان هذا في القرن الثاني فما ظنك بقرون بعده؟! حتى إذا بلغ السيل الزُّبى، وتضاعف كل ما ذكرنا، وأفسد المسلمون في الأرض بعد إصلاحها، بعث الله عليهم عباداً له أُولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار.

سلّط عليهم المغول والتتار ـ أشقى الأمم وأخملها وأجهلها وأوحشها ـ فوضعوا فيهم السيف، وأَجْرَوْا من دمائهم سيولاً وأنهاراً، وأقاموا من رؤوسهم صروحاً وتلالاً، وفعلوا بهم الأفاعيل، وأحلُّوهم الخوف، فتمكّن من قلوبهم الوهن والجبن، حتى أصبحوا لا يصدّقون بهزيمة التتر.

---

(١) فتوح البلدان، ص ١٠٤، طبع بريل.

قال ابن الأثير: «سُمع عن بعض أكابرهم أنه قال: «من حدّثك أن التتر انهزموا فلا تصدّقه» قال: ووقع رعبهم في قلوب الناس، حتى كان أحدهم إذا لقي جماعة ليقتلهم واحداً واحداً، وهم دهشون، ودخلت امرأة من التتر داراً وقتلت جماعة من أهلها، وهم يظنونها رجلاً، ودخل واحد منهم درباً فيه مئة رجل، فمازال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم يمدّ أحد يده إليه بسوء، ووضعت الذلة على الناس، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً، نعوذ بالله من الخذلان.

وحُكي أن أحدهم أخذ رجلاً، ولم يجد ما يقتله به فقال له: ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح! فوضع رأسه وبقي إلى أن أتى التتري بسيف وقتله»، قال ابن الأثير: «وأمثال ذلك كثيرة».

وإليك ما قال ابن الأثير قبل أن يسرد وقائع هذه النازلة:

«لقد بقيتُ عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة؛ استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدِّم إليه رِجلاً وأُؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نَعْيَ الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً...

هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمَّت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن أهل العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها... ولعل الخلق لا يرَون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا... إلخ».

ولكن مثل هذه الحادثة لم تستطع أن تنبّه المسلمين، ولم يفيقوا من سكرتهم، ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغيّر الله ما بهم، وحقَّ عليهم قول ربهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقوله: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. ومازالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهوٍ وظلم، حتى يقول ابن الأثير:

«فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه، وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ

ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]».

ومما يجب أن يلاحظ القارئ ويعتبر به المعتبر، أنَّ المسلمين في هذه الظلماء التي غشيتهم، والفتنة التي عمَّتهم، كلما أفاقوا من سكرتهم، وأصلحوا شأنهم، وأزاحوا العلل، وصمدوا في وجه العدو، واستنزلوا النصر، هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة، ولا يصدِّق الناس بانهزامهم، فقد هزمهم جلال الدين خوارزم شاه ثلاث مرات، وهزمهم الظاهر بيبرس غير ما مرة، وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصُّفَّر. وقال السيوطي عن وقعة عين جالوت: «فهُزِم التتار شرَّ هزيمة، وانتصر المسلمون، ولله الحمد، وقتل من التتار مقتلة عظيمة، وولَّوا الأدبار، وطمع الناس فيهم يخطفونهم وينهبونهم»[١].

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

حال المسلمين في القرونِ الأخيرة

لم يزد المسلمون إلا ضعفاً، ولم تزدد أخلاقهم على مرِّ الأيام إلا انحطاطاً وتدهوراً، ولا أحوالهم وشؤونهم إلا فساداً، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمة جوفاء، لا روح فيها ولا دم، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لايزال يؤوي الناس ويهول من بعيد، أو كدوحة قد تآكَلَتْ جذورها، ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد، وأصبحت بلادهم مالاً سائباً لا مانع له، وأصبحت دولهم فريسةً لكلِّ مفترس، وطعمة لكل آكل، وحقَّ قول النبي ﷺ:

«يوشكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلَةُ إلى قصعتها، فقال قائل: أوَمِنْ قلةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غثاءٌ

كغثاءِ السيلِ، وليَنْزِعَنَّ اللهُ من صُدُورِ عدوِّكُم المَهابةَ منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوَهْنَ، فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْنُ؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت»[1].

واستمرَّ المسلمون بهذا الحال وزيادة، حتى أغار عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الأمم الأوروبية، النصرانية الجاهليَّة، المتحضّرة الوحشيّة، الكاسية العارية[2]، فسلّموها مفاتيح مُلكهم، واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم.

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي، منزلة أن وُجد فيهم أفراد خانوا أمتهم، وشرَوا[3]

---

(١) رواه أبو داود، عن ثوبان رضي الله عنه.
(٢) المطَّلِع على تاريخ هذه الأمم وطبيعتها يصدّق هذه الصفات المتناقضة.
(٣) شرَوا: باعوا.

بلادهم بثمن بخس دراهم معدودة، وتطوَّعوا في جنود العدو يفتحون بلادهم للأجنبي على حسابهم.

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيراً، وأعمق أثراً، وأبعد مدى، من الهجوم الشرقي ـ المغولي والتتري ـ فكاد يُخمدُ كل جمرة في قلوبهم، لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون، وبقيت كامنة في الرماد تخبو مرة وتلتهب أخرى.

ابتلاء المسلمين بالشك والذل النفسي

فتَّش عقلاؤهم[1] عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين وقلوبهم، فوجدوا أن أكبر منبع للقوة والحياة هو «الإيمان» وشهدوا ما فعل الإيمان قديماً، وما أظهر من معجزات وخوارق، وما هو خليق بأن يفعل، فعادَوه وسلَّطوا على المسلمين عدوَّين هما

(١) أي عقلاء الأعداء.

أفتك بهم وأضرّ لهم من المغول والتتار، ومن الوباء الفاتك:

الأول هو الشك وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه.

والثاني ما نعبر عنه بالذل النفسي[1]. وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذلة والهوان في داخل أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق، ويستحيون من أنفسهم، ويؤمنون بفضل الأوروبيين في كل شيء، ويعتقدون فيهم كل خير، ولا يكادون يعترفون بنقص وعيب في ناحية من نواحي الحياة، ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم في ساعة من ساعات الدهر، وإذا تمكَّن هذا الذلّ من نفوس أمة، فقد ماتت، وإن كنت تراها تغدو وتروح، وتأكل وتعيش.

---

(١) وهو ما اعتاد الكتّاب العصريون بتسميته «بمركب النقص».

ابتلاء المسلمين بعبادة المادة وحب الدنيا

وابتلي المسلمون في هذه المرة بتأثير الحضارة الغربية، والفلسفة الغربية، بعبادة المادة وحب الدنيا، والجري وراء النفع العاجل، وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية على المبادئ والأخلاق؛ شأن الأمم الأوروبية الجاهلية، فكانت هذه الأخلاق وهذه النفسية والتربية مانعاً من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ومن تحمُّل المشاق، وتجرُّع المرائر، ومكابدة الأهوال، والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح، والعقيدة السامية.

* * *

أسوأ جيلٍ عَرَفَهُ تاريخُ الإسلامِ

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين: متنوّر الذهن، ولكن مظلم الروح، أجوف القلب،

ضعيف اليقين، قليل الدين، قليل الصبر والجَلَد، ضعيف الإرادة والخُلق، يبيع دينه بدنياه، وآجله بعاجله، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية، وبجاه وعزَّة وهمية، ضعيف الثقة بنفسه وأمته، عظيم الاتكال، كثير الاستناد إلى غيره: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوَهْن، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله، ثم الاعتماد على أنفسهم؛ إلى الاعتماد على غيرهم والتكفف لديهم، والالتجاء في مواقع الخطر إليهم، وأطفؤوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله، والحمية للدين، وأبدلوها بالوطنية العليلة، والقومية الناعسة، وأبدلوا جنونها الذي بعث الحكمة من مرقدها، وأطلق العقل من إساره، والذي تمكّن

مما لم يتمكن منه العقل والعلم في آلاف من السنين، أبدلوا هذا «الجنون» الحكيم بعقل ناقص عليل، لا يعرف إلا الموانع والعراقيل.

وقد ظهر هذا التحوُّل العظيم في العقيدة والنفسية، والإفلاس في الروح والإيمان، في شرِّ مظاهره في حرب فلسطين، فكان فضيحة للعالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع أمام الزحف التتاري فضيحة للعالم الإسلامي في القرن الثامن.

فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية، وتدافع عن وطن عربي إسلامي مقدَّس، عن القبلة الأولى، وعن المسجد الثالث الذي تُشَدُّ إليه الرحال، وعن جزيرة العرب والأقطار العربية التي أصبحت مهددة بالخطر الصهيوني؛ فكانت حرب فلسطين دفاعاً عن حياة وشرف وعن دين وعقيدة، وكان العالم العربي بأسره

إزاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد، واتَّجهت الأنظار إلى مسرح فلسطين، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليـرمـوك، أو وقعـة مثـل وقعـة حطيـن، ولمـاذا لا ينتظرونها والأمة هي الأمة، والعقيدة هي العقيدة، مع زيادة فائقة في العَدَد والعُدد، فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالَم؟ ولماذا لا يقضون على عدوّهم وهو حفنة من المشرّدين؟!.

ولكنَّهم نَسُوا ما فعلت الأيام وما فعلت التربية، وما فعلـت الدول والزعامـة السيـاسية، وما فعلـت المادية بالأمة العربية في هذا العصر؛ لقد تقدم العرب إلى معركة اليرموك حقاً، ولكن بغير الإيمان الذي تقدّم به أسلافهم إلى هذه المعركة في العصر الأول.

لقد تقدّموا إلى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين ـ لو ظفر العرب ـ ولكنهم تقدّموا بغير الروح التي تقدَّم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد. تقدَّموا

بقلوب خاوية تكره الموت وتحب الحياة، وأهواء مشتتة، وكلمة متفرّقة، يريدون أن يربحوا النصر ولا يخسروا شيئاً، وأن يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشيء؛ كلٌّ يعتقد أن غيره هو المسؤول عن الحرب، وعن الغلبة والهزيمة، ثم هم يقاتلون وحبلهم في يد غيرهم، إذا أرخى قليلاً تقدّموا، وإذا جرّه تأخّروا، وإذا قال: حارِبوا حارَبوا، وإذا قيل: اصطلِحوا اصطلَحوا، وما هكذا يكتسب الظفر ويقهر العدو.

أوْرَدها سعدٌ، وسعدٌ مشْتَمِل

ما هكذا يا سَعْدُ تُورَدُ الإبل

وبقي العالَم متطلّعاً إلى ما قرأه في تاريخ الجهاد الإسلامي من روائع الإيمان، وخوارق الشجاعة والصبر، والاستهانة بالحياة، والبسالة والبطولة،

والاستقبال للموت، والتمني للشهادة، وحسن النظام، وروح الإطاعة والإيثار، فلم يرَ من ذلك شيئاً، إلا لمعات وإشراقات للإيمان، كانت تظهر من بعض المتطوعين في حرب فلسطين، والإخوان المجاهدين، تجنَّدوا وتطوَّعوا للحرب بدافع الإيمان، والدفاع عن الإسلام، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة، ودفعتهم إلى ميدان الحرب، فشرَّفوا الدين وأرعبوا القلوب، وأعادوا التاريخ القديم، وبرهنوا على أن الإيمان لايزال المنبع الفيّاض للقوة والنظام، وأن عنده من القوة والنفوذ، والتنظيم وروح المقاومة والجهاد، ما ليس عند الدول الكبيرة المنظّمة.

* * *

خاتمة

لقد ثبت مما ذكرناه في هذه الرسالة، وما سردناه من الأمثلة والأخبار، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ـ وما حرب فلسطين منا ببعيد ـ أن المَدَّ والجَزْرَ في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمَدِّ والجَزْرِ في الإيمان، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين، وأن منبع قوة هذه الأمة في باطنها، وهو القلب والروح.

فإذا عُمِّر القلب بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وتزكّت الروح بتعاليم الدين والأخلاق الإسلامية، وجاش الصدر بالحميَّة الدينية جَيَشان المِرْجَل، وأخذ المسلمون عدّتهم من القوة المادية،

وأعدُّوا للعدوّ ما استطاعوا، وأدركوا ما عليه العالم من جَوْر وظلم، ومن جهالة وسفاهة، وضلال في الدين والدنيا، وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١]. فانعطفوا عليه، ورأوا كأنّ العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم، فسَعَوا به يطفئون النار التي عمّت الدنيا، ونَسُوا في سبيل ذلك لذّاتهم، وَتَكَدَّرَ عَيْشِهِم، وطار نومهم، وجنّ جنونهم؛ فعند ذلك، يتحوّلون قوة خارقة للعادة، لا يغلبها العالَم؛ ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده، ودوله، ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩].

* * *

الفهرس

* * *

صدر في هذه السلسلة

١ ـ الإسلام في الماضي والحاضر/ د. محمد الزحيلي

٢ ـ الإسلام والشباب/ د. محمد الزحيلي

٣ ـ التكريم الإلهي للإنسان/ د. محمد الزحيلي

٤ ـ النصيحة (شروطها وآدابها)/ د. عبد الرب نوّاب الدين

٥ ـ الفقه الإسلامي ومدارسه/ مصطفى الزرقا

٦ ـ الأمل وأثره في حياة الأمة/ محمد أبو صعيليك

٧ ـ من نبوءات الرسول ﷺ/ إبراهيم العلي

٨ ـ الخطة البرّاقة لذي النفس التوّاقة/ د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

٩ ـ بناء شخصية الطفل المسلم/ محمد عثمان جمال

١٠ ـ إسرائيل ركيزة للاستعمار والعدوان بين المسلمين/ د. حسن ظاظا

١١ ـ العقل والفقه في فهم الحديث النبوي/ مصطفى أحمد الزرقا

١٢ ـ المبشِّرات بانتصار الإسلام/ د. يوسف قرضاوي

١٣ ـ جهاد الكلمة: معالمه وضوابطه/ د. محمد أبو الفتح البيانوني

١٤ ـ الصراع بين الإيمان والمادية/ أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٥ ـ أحاديث الجمعة/ حسن البنا

١٦ ـ مئة درس من السيرة النبوية/ د. عبد الرب نوّاب الدين.

١٧ ـ فلسطين واليهود في مسرح علي أحمد باكثير/ عبد الله محمود الطنطاوي.

١٨ ـ منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسي/ عبد الله محمود الطنطاوي.

١٩ ـ الأربعون العلمية/ عبد الحميد طهماز.

٢٠ ـ القدس: مدينة الله أم مدينة داود؟/ حسن ظاظا.

٢١ ـ توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

٢٢ ـ تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية/ محمد علي البار.

٢٣ ـ المد والجزر في تاريخ الإسلام/ أبو الحسن علي الحسني الندوي.

٢٤ ـ يا بني إسرائيل/ عبد الحميد طهماز.

٢٥ ـ الإسلام والتيارات الفكرية العالمية/ محمد المبارك.

* * *

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١